من عبد الحكيم قاسم

انطلقت على دراجتي في شوارع برلين الغربية. في جيبي الآن خطاب سهيل إدريس بأن أكتب رسالة الآداب من برلين كل شهر. ليس خطاباً بل على وجه التحديد حديث عابر ونحن في مدينة فاس المغربية في الملتقى عن الرواية العربية وقد عزمنا جميعاً على العشاء في قصر رئيس المجلس البلدي للمدينة. قال لي سهيل إدريس: أنت في برلين إذن.. اكتب لنا يا أخي رسالة للآداب كل شهر... وسوف نعوضك أيضاً..! يـا أمـة لا إله إلا الله... إن هذا لشيء رائع.. بهذا الحديث القصير في تلك الأمسية الرائعة أصبحت مراسل الآداب في برلين الغربية.. فرحت أكثر مما فرح دون كيشوت عندما رسمه فارساً صاحب تلك الحانة الريفية ووافقت متحمساً، ونفض الدكتور سهيل إدريس يده مني وبدأ يوزع اهتمامه على أصحابه الكثيرين، وأنا وحدي مذهولاً أقول لنفسي: ما أحسه الآن.. هو بالضبط ما يحسه المراسلون العظام للمجلات الأدبية الكبيرة.

والأمر بالنسبة لي ليس شيئاً هيناً، بل هو من الأحلام القديمة الكبيرة حينما كنا شلة من العيال الصيع المنصرمين في حي منيل الروضة بالقاهرة، نقرأ ونكتب ونأكل سندويتشات الفول ونشرب مسكراً كالعسل ونستعمل في مناقشاتنا الكلمات نادراً واللكمات والخرابيش أكثر الوقت... ثم فجأة.. ومن دوننا جميعاً يصبح سامي خشبة مراسل الآداب في القاهرة!.

فجأة طالت قامته ورصنت كلماته ورزنت حركاته وأصبح يقع فقط على الأفكار العظيمة والآراء القيمة، وأصبح حكمه على أعمالنا نهائياً وأصبحت مناقشاتنا معه ملاطفات ناعمة. وهو من جهته كان يأخذنا معه إلى حيث كان يقبض مكافأته.

كنا نروح إلى أحد أقرباء سهيل إدريس في القاهرة. رجل عملاق عريض الكتفين. ثم هو أنيق وسيم لبق الحديث. ثم إنه كان لديه دائماً ما يحكيه. مواقف وطنية، مواقف شجاعة وكريمة. وأنا أراه على ربوة في أرض الشام التي هي عندي كالحلم، وحوله أشجار الزيتون يصيح، يهدر بكلمات بواسل.. ثم يأخذ سامي منه النقود وننزل.. وأحياناً كان سامي خشبة يكرمنا من هذه النقود بزجاجة بيرة أو حتى كوب من عصير القصب نحتاجه في حر القاهرة الشديد. لكنه كان يعنت علينا. ما نطلبه في التليفون حتى يبادر بالاعتذار.. إنه يكتب الرسالة - لم ينته بعد من كتابة الرسالة.. كم يعاني حتى يجد مادة جيدة لهذه الرسالة.

أنا الآن أيضاً مراسل للآداب في برلين الغربية.. أين سامي خشبة لأريه أنني أيضاً أستطيع أن أكون مراسلاً للآداب.. سامي ليس هنا للأسف.. بيني وبينه آلاف الأميال.. والألمان يمشون في شوارع برلين لم يتغير من عاداتهم شيء، لا تبدو عليهم الدهشة ولا الاستغراب.. كأنما ذلك الذي كان في فاس المدينة المغربية الرائعة في ذلك المساء الجميل في قصر رئيس البلدية.. وتكليف سهيل إدريس لي أن أكون مراسلاً للآداب.. كأنما هذا أمر يمكن ألا يثير اهتمام أحد.

انطلق في شوارع برلين الغربية على دراجتي على خط مستقيم لا أحيد عنه، فإنني لو فعلت لكان في ذلك خطر عظيم من العربات اللامعة الهادرة المارقة من حولي كالسهام، لكنني في ضجة الشارع المهولة أرفع عقيرتي بالغناء: مواويل مصرية قديمة، طقاطيق حديثة، آيات من القرآن، مقتطفات من خطب زعماء عظام... أو زعماء هلافيت زعَّمهم هذا الزمن الوغد الحقير، أطير على دراجتي لا يأبه لي أحد ولا آبه بأحد... لكن السؤال ينزل عليَّ فجأة:

إذا كنت قد أصبحت مراسلاً للآداب في برلين الغربية فهذا شيء عظيم، وإذا كان سهيل إدريس لا ينام الليل الآن في انتظار رسالتي فتلك مسئوليته الكبيرة، وإذا كان القراء يقلبون في كراسة المجلة بحثاً عن مقالي وتلهفاً عليه فهذا طيب وهو وعي القارىء العربي بكتابه...

لكن.. يا رافع السماوات.. ليس في رأسي كلمة واحدة لأبعث بها لسهيل، وليس في رأسي خاطر واحد لأفضي به لقرائي المتلهفين على مقالي، بل إنني لا أجد عندي مفهوماً واضحاً لما هو المراسل لجريدة أدبية في بلدة أجنبية.

هل ينبغي على المراسل أن يصف الأشياء بارداً محايداً.. أم ينبغي عليه أن يصدم وأن يدهش.. أم أن عليه أن يكون ذكياً فيتملق شعور قارئه، أم أن يكون أكثر ذكاءً فيتملق الناس والأشياء التي يكتب عنها، أم عليه أن يتسمع أين يكون الصراخ فيجري ينضم إلى الكورس زاعقاً مع الزاعقين؟.

تقلبت بين هذه الخواطر غير مستقر على واحد منها. ولم يسعفني صديقي سامي خشبة بشيء. فلقد تذكرت أكواب البيرة التي جاد بها علينا وأكواب عصير القصب في الحر القاهري الشديد. وتذكرت كذلك أنني قرأت رسائله وأن كثيراً منها سرّني وقليلاً منها أغضبني. تذكرت كذلك أنني قرأت رسائل مراسلين كثيرين لصحف عديدة لكنني لم أجد في رأسي مفهوماً محدداً لمهمة المراسل لمجلة أدبية في مدينة أجنبية مهما عنتّ على نفسي بحثاً عن هذا المفهوم.

لكن أياً كان مفهومي لمهمة المراسل فواحد من واجباته أن يقول للمجلة شيئاً عن المهرجان البرليني الثلاثين للفيلم. ربطت دراجتي في عمود النور وأسرعت إلى رقم ٥٠ شارع بودابستر شتراس. حاشني الرجل عن الدخول فأنا لا أملك بطاقة مراسل، لكنني أبرزت له بطاقة عضويتي في اتحاد الكتاب الألماني وصعدت السلم.

القاعة تموج بالناس، صحفيون ومخرجون وفنانون ونجوم وأصحاب أعمال، الحيطان مزوقة باعلانات عن الأفلام، كلام عن الثورة والحب والحرية وتحرير المرأة. صفوف من وكلاء الشركات ووكلاء دور الاذاعات والتليفزيون والأنباء. في الأركان بوفيهات للطعام الفاخر والشراب والأسعار أرخص من الخارج من أجل ضيوف المهرجان.. مشيت كالتائه وسط الناس.

إذا كنت لا أملك مفهوماً لمهمة المراسل، فأنا أيضاً لا أملك مفهوماً لقضية السينما في العالم. تلك الأداة الهائلة التأثير على الجماهير التي تديرها شركات رأسمالية كبرى تتكلم عن الثورة والحب وتحرير المرأة... وإذا كانت الرأسمالية في الغرب على قدر من الاستنارة وإذا كانت هذه الأداة الهائلة في العالم الاشتراكي في يد الدولة... فما الأمر في بلادنا والقطاع من الرأسمالية الذي يمارس العمل في السينما جاهل متخلف لا يعقل أن توضع في يده مسئولية كبيرة كهذه... مشيت قدماً.

رأيت وجهاً توسمت مصريته. كانت صحفية مصرية. حييتها ويبدو أنها كانت تحتاج لمن تتكلم معه: إنهم يهملوننا.. إنهم لا يأبهون بنا.. لماذا يدعوننا إذن..؟ وابتسمت صامتاً. فإنه يبدو أن بعضاً من المصريين يتصورون أنهم إذا قدموا إلى الغرب فسوف تفرش لهم الطرق بسطاً حمراء بعد الاتفاق مع اسرائيل.. الحقيقة المرة غير ذلك، والثمن أقل بكثير من تكاليف الخيانة.

قال لي مصري له لحية كبيرة، يقيم في المانيا منذ أكثر من عشرين عاماً ويعمل بالسينما. إن ثمة فيلماً مصرياً معروضاً خارج المسابقة فقلت لا مانع من أن أراه، ورأيت فيلماً بوليسياً من الدرجة الثالثة اسمه « ضربة شمس » وتساءلت لماذا أرسلوه..؟ ربما ليشتريه واحد تركي أو واحد باكستاني ليعرضه في بلادهم على جماهير جائعة للحم العاري وللمغامرة والخطر والثورة الإسلامية.

المهم أن هذا المصريّ عرض فيلماً من صنعة من صناعة الأفلام العربية في ألمانيا. والأمر أن الممثلين والمخرجين والفنيين من كل صنف يهاجرون الآن إلى ألمانيا ويعملون هناك بأجور متواضعة في أفلام عربية تباع بعد ذلك للتليفزيونات العربية بالعملة الصعبة وبأغلى الأسعار. وهذه الأفلام تقول عنا وعن تاريخنا وقضايانا ما يحلو لها بلا رقيب أو حسيب.

خرجت أجري. إنني لم استطع مقاومة نفوري من مهرجان السينما هذا. لم أر كل الأفلام. بل لم أقرأ كل التعليقات عليها في الجرائد، حتى الأفلام التي نالت الجوائز. ولكن هناك فيلماً هزّني وأريد أن أقول عنه للقارىء شيئاً، وهو فيلم « صرخة من قلب الصمت » الذي تقدمه السيدتان آن كلير بواريه ومارتا بلاكبورن.

الفيلم يزعم أن علاقة الرجل بالمرأة في مجتمعنا هي علاقة اغتصاب متكررة. وأن المرأة تصمت نتيجة خوف أو إحساس عميق بالعار أو هما معاً فلا تتمرد على وضعها. لكنها تفقد كل قدرتها على الحب وعلى الابداع وعلى الحياة نفسها فتموت ان مادياً بالانتحار أو معنوياً بالسلبية المطلقة. ويزعم الفيلم أن الرجل كما تحركه ناحية المرأة عاطفة الحب تحركه ناحيتها أيضاً مشاعر الاحتقار والكراهية وأنه أحياناً يحقق أقصى لذاته من منطلق الكره والاحتقار.

وقد دارت السيدة آن كلير مع الفيلم على جماهير دور السينما في برلين تناقش معهم القضية، وقد كنت هناك، ورأيت سيدات تبكين بحرقة. ورأيت رجلاً يسأل هل هذا حقيقي؟ وأنا لم أنصت للاجابة، أنا لا تهمني الاجابات بقدر ما تهمني الأسئلة. ينبغي أن نطرح على أنفسنا أسئلة كثيرة وستأتي الاجابات يوماً حينما يصبح الكلام في هذه الدنيا ممكناً.. ومفهوماً.

انطلقت بدراجتي في شارع هارونبرج شتراس. مسرح النهضة يعرض « الزوجة المثالية » هذا المسرح دمه ثقيل على قلبي. أميل في شارع أتوزور آلى مسرح شلر يعرض « الحياة الباريسية ». رأيت هنا مرة « بستان الكريز » وكان مساءً رائعاً. سأنتظر عرضاً آخر. الأسعار أيضاً غالية جداً. مررت بأوبرا برلين تعرض كارمن.. يا ربي.. أن أرى هذه الأوبرا.. ثم أتعشى في المطعم المجاور.. ثم أسهر في حانة برلينية من غير زوجتي إلى الفجر.. يا رب كل شيء.. إن هذا لهو الجد.

لكنني الآن مراسل الآداب في برلين الغربية وعندي مهام جسيمة لا بد من إنجازها. دست على « بدال » دراجتي وانطلقت مسرعاً إلى عرض توت غنخ آمون الذي يقيمه المتحف المصري القديم في برلين الغربية. في الدور الأول لوحات هائلة تبيّن تاريخ كشف المقبرة وأهميته والذين قاموا بالكشف ثم نبذة عن الملك وموقعه في تاريخ مصر القديمة وبذلك يصبح الزائر مالكاً للحد الأدنى من المعلومات التي تؤهله للصعود للدور الأعلى حيث تعرض ٥٤ قطعة أثرية من آثار مقبرة توت عنخ آمون.

والصاعد إلى العرض يصطحب معه إما دليلا مصوراً فيه نبذة عن كل قطعة أو شريطاً مسجلاً يحكي ويرشد ويعلق على العروضات وضعه بصوته مدير المتحف المصري في برلين الغربية. ثم تدخل القاعة فإذا هي محكمة الاغلاق جيدة التهوية، معتمة لا ضوء إلا ما يسقط على القطع من مصابيح موجهة. ابتسمت، مقارناً تراكم الآثار في متحف القاهرة بلا نسق مفهوم وبين هذا النظام البديع هنا. وأثار ابتسامي أن الأمر ممكن، من الممكن أن نعرض آثارنا عندنا بشكل جيد.. لكننا لا نفعل...

بل إننا لا نحس بالاحترام لما لدينا، فإذا استولى حاكم على قصر أثري يسرق محتوياته ويلقي بما يستغني عنه منه ويقيم فيه لا نرى فريقاً من العلماء يصدر احتجاجاً أو هيئة علمية تثير الموضوع وتقدر المسروقات. هنا أثير السؤال عن مدى انتمائنا إلى ماضينا العريق.. وانتماء هؤلاء الذين أراهم حولي يتأملون ويقارنون مستغرقين كأنهم في صلاة مقدسة.. أسأل ولا انتظر جواباً.. فالأسئلة الآن هي المهمة والأجوبة متروكة إلى حين.

ولا أنهي رسالتي قبل أن أقول كلمة عن المؤتمر الخامس لاتحاد الكتاب الألماني الذي عقد في الفترة من ٢٩/ ٢ حتى ٢/ ٣/ ١٩٨٠ في مدينة ميونخ عاصمة إقليم بافاريا.

لقد عقد المؤتمر في هذه المدينة تحديا لشتراوس رئيس حكومة المدينة ومرشح الاتحاد الديموقراطي المسيحي لمستشارية المانيا ضد هلموت شميث المستشار الحالي.

إن هذا الرجل المخيف يقود حملة صليبية ضد كل ما هو متحرر أو تقدمي أو متسامح أو يريد سياسة المانية ذات تمايز عن سياسة أمريكا. وعنده أن هلموت شميث وڤيلي برانت وغيرهما شيوعيون يقودون ألمانيا للخراب. وعنده أن سياسة تخفيف حدة التوتر هي ميوعة واستسلام للروس. وهو ماكينة شتم هائلة تصبّ لعناتها على الطلاب والجماعات المتحررة والتقدميين وحتى النقابيين.

وآخر ما أتى به هو سب الكتاب وتسميتهم بالفئران والذباب. ورداً عليه جاء المؤتمر الخامس للكتاب وعلى شتراوس وأعوانه، وقضى أن يقام في مدينة ميونخ عاصمة حكومة شتراوس وأن يكون برنامجه الأساس بل والوحيد أن يقام مهرجان لحرية الكتاب والكتابة. ويوجه حملة لكل أعداء الديموقراطية والحرية في ألمانيا.

فشتراوس في حد ذاته ليس هاماً. انه قيمة متدهورة وقميئة، ولا أظن أن الشعب الألماني يأتي بمثل هذا الرجل إلى السلطة. لكن المهم هو ذلك الاتجاه في ألمانيا الذي يرمز له شتراوس ويقوده. بل المقصود أكثر من ذلك محاربة أي اتجاه معاد للحرية في الكتابة الأدبية ذاتها سواءً أكان واعياً أو غير واع.

وكانت قمة المهرجان إقامة « ديوان حي » «Anthologie live» شارك فيه أكثر من عشرين مؤلفاً ألقوا نصوصاً من مختلف الأنواع الأدبية، كلها هجوم وتشنيع بالعداء للديموقراطية والحرية، وسخرية من الخوف الموهوم من الشيوعية الذي تحت ستارة ترتكب كل جرائم العدوان على الحريات وتفرض الرقابة، أو ما سموها برقابة الاعلام على المطبوعات.

وقد شارك في هذا الاحتفال هنريش بول وجونتر جراس. ومما لفت النظر أساطير الكاتب الشاب كارل هانز فرانس التي يضعها على غرار جريم الكاتب الألماني القديم. وقد حكى في ذلك المساء عن الأم التي غرق ابنها في بئر فبدأت تبكي حتى أتى رجل وأنقذه ومشى. لكن الناس بعد أن مشى الرجل قالوا لها إنه شيوعي، فبادرت إلى إلقاء ابنها في البئر، فهي لا تريد طفلاً مديناً بحياته لشيوعي!

أما الكاتب هينر كبهارت فقد سخر من شتراوس شخصياً بحكاية عن الجزار الذي يتألم من الجزارين الآخرين.. لأنهم أيضاً وبطريقة غير إنسانية يذبحون البقر. أما الكاتب الشهير رولف هوفهوت الذي ذاع صيته بما نعاه على السياسي الألماني المحافظ فلبنجر من حكمه بالاعدام على جندي هرب من البحرية أثناء الحرب (حتى ان فلبنجر انهى بذلك مستقبله السياسي) فإنه يواصل ملاحقته بالوثائق للمحافظين السياسيين في ألمانيا ويفضحهم ويقدم في هذا المؤتمر وثائق جديدة لإدانتهم.

هذا الى جانب معارض للكاتب ولقاءات تعارف بين وفود البلاد المختلفة والشخصيات المدعوة من بلاد أجنبية. لقد عاد وفد برلين وستكون بين كتاب برلين مناقشات عميقة مما دار في هذا المؤتمر. قد يتاح لي أن أقول شيئاً عنها في الرسالة القادمة

صدر حديثاً عن مؤسسة نوفل

الرحالون العرب وحضارة الغرب
في النهضة العربية الحديثة
للدكتورة نازك سابا يارد
دراسة تتسم بالعمق والاحاطة، وترصد مواقف الرحالين العرب من الحضارة الغربية في الحقبة الممتدة من ١٨٢٦ الى ١٩٣٩

فلسفة ميخائيل نعيمه
للدكتور محمد شيا
بحث منهجي يكشف عن مضامين فلسفة نعيمه وأبعادها. ومعه يطل علينا ناسك الشخروب مفكراً فلسفياً كبيراً كما هو أديب وكاتب فني كبير

أعلام الجيل الأول من شعراء العربية في القرن العشرين
للعلامة أنيس المقدسي
دراسات تحليلية في شعر شوقي - حافظ - مطران - الزهاوي - الرصافي - المنفلوطي - الأخطل الصغير - ايليا أبو ماضي ...
ومختارات نموذجية لروائع القصص الأصولي ملمّعة بأهم العناصر الروائية الحديثة

سنابل الزمن
للأستاذ محمد قره علي
روائع ومأثورات شرقية وعربية. مختارات كل كلمة منها كتاب، وكل بيت ديوان

الضاحكون
للأستاذ محمد قره علي
كتاب فيه النكتة البارعة والعظة البليغة والحكمة العميقة وهو في تبويبه وتنسيقه وأسلوبه يغري القارئ ويغنيه

الأعمال الكاملة - مجلدان -
مي زيادة
تضم هذه المجموعة كل ما خطته الأديبة الرائدة مي زيادة من خطب ومحاضرات ومقالات نقدية، وأبحاث ودراسات، بقلم يتوهج بالفن ويشتعل بالتمرد والطموح

الأعمال الكاملة - مجلدان -
للأستاذ سلام الراسي
موسوعة حكايات ونوادر وأمثال وأقوال وأحداث يرويها الكاتب برشاقة ودقة وطبيعية وفن، وتؤلف جزءاً كبيراً من ثقافتنا الشعبية وتراثنا الفولكلوري العريق

الناس بالناس ...
للأستاذ سلام الراسي
مجموعة طرائف وحكايات وملح ونوادر من أعماق تراثنا الاجتماعي يضيفها المؤلف إلى مجموعاته السابقة ويضفي عليها من قلمه حيوية وجدة ودسامة

الأعمال الروائية الكاملة
للسيدة امليه نصرالله
في روايات امليه نصرالله تعبير عن معاناة الانسان في مناخات المجتمع والعصر. وفيها نكهة القصص الأصولي ملمّعة بأهم العناصر الروائية الحديثة

تلك الذكريات
للسيدة امليه نصرالله
أثر روائي يستوحي الأحداث اللبنانية الدموية مختصراً عمق المأساة وأبعاد المصير وروعة الإبداع

نكات خازنية
للأستاذ رياض حنين
مجموعة تراثية في أدب النكتة، تحمل إلى القارئ البسمة والمتعة في كثير من الرشاقة والظرافة والعمق

سلسلة "العالم بين يديك"
مكتبة مكدونلد للأطفال
سلسلة تقدم للقارئ الصغير المعرفة الملزمة لعمره بلغة سهلة وأسلوب جذاب يعتمد الرسوم الملوّنة تشويقاً له وتكويناً لشخصيته.
صدر من هذه السلسلة حتى الآن الموضوعات الآتية: منوعات - طبيعة - أساطير - مشاهير - حوادث ...

مكتب: بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة - تلفون: ٢٥٣٣٠٣ - ص.ب ١١/٢١٦١ - بيروت
بيروت - شارع المعماري - بناية نوفل - تلفون: ٣٥٤٣٩٤ - تلكس: نوستن ٢٢٢١٠ - لبنان
مستودع: بيروت - بناية مركز الأطباء - قرب مستشفى الجامعة الأميركية - تلفون: ٣٥٤٨٩٨ - لبنان